الرقم التسلسلي المعياري الدولي: 2788-8037
المزيد عن رواق عربي وقواعد تقديم الأبحاث للنشر
https://rowaq.cihrs.org/submissions/?lang=en

الافتتاحية: الانتخابات الأمريكية ومستقبل العرب والخطاب الحقوقي (2-1)

محمد السيد سعيد

الإشارة المرجعية لهذا المقال: سعيد، محمد السيد (2008) *الافتتاحية: الانتخابات الأمريكية ومستقبل العرب والخطاب الحقوقي (2-1)*. رواق عربي، 12 (4)، 5-15.

إيضاح

هذا المقال يجوز استخدامه لأغراض البحث والتدريس والتعلم بشرط الإشارة المرجعية إليه. يبذل محررو رواق عربي أقصى جهدهم من أجل التأكد من دقة كل المعلومات الواردة في الدورية. غير أن المحررين وكذلك مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان لا يتحملون أي مسؤولية ولا يقدمون أي ضمانات من أي نوع فيما يخص دقة أو كمال أو مناسبة المحتوى المنشور لأي غرض. وأي آراء يعرضها محتوى هذا المقال هي آراء تخص كاتبيه، وليست بالضرورة آراء محرري رواق عربي أو مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان.

حقوق النشر

هذا المصنف منشور برخصة المشاع الإبداعي نَسب المُصنَّف 4.0.

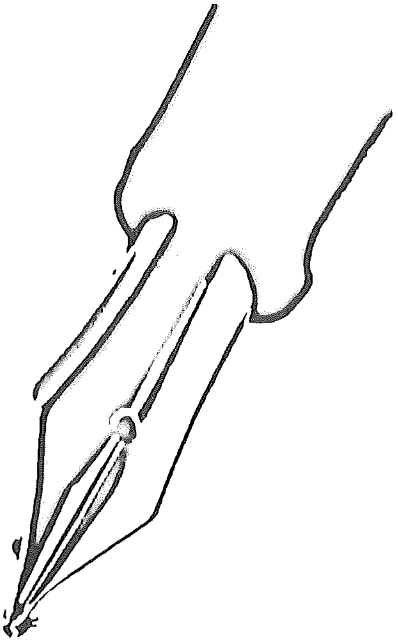

الافتتاحية

الانتخابات الأمريكية ومستقبل العرب والخطاب الحقوقي (١-٢)

لا أظن أن ثمة جديدا سيحدث فى المنطقة خلال الشهور الباقية على رئاسة جورج بوش الابن. وأن الجديد فعلا، إنما يحدث فى أغرب انتخابات رئاسية فى تاريخ أمريكا على الإطلاق. بل وقد لا نبالغ إذا قلنا إن هذه الانتخابات قد تحدد مستقبل أمريكا بل ومستقبل العرب أيضا وربما مستقبل النظام العالمى.

بل إن ثمة نوعا ما من الوعود بأن تبدأ ثورة ثقافية جديدة فى أمريكا تنهي هيمنة الأصولية الدينية والسياسية التى قادت أمريكا لهاوية أخلاقية وسياسية وضربت فى مقتل خطاب حقوق الإنسان. ولكن هذه الوعود ليست من النوع البسيط، فثمة تعقيدات لا حصر لها فى قدرة القوى التقدمية على تحقيق النصر.

توازن واستقطاب حرج:

أتصور مبدئيا أن ثمة توازن دقيق ومتحرك فى موجات قصيرة بين اليمين الأمريكى المتطرف الذى عبر عنه بوش وقد يعبر عنه ماكين المرشح الوحيد حاليا للحزب الجمهورى من ناحية والديموقراطيين من ناحية أخرى. أما داخل الديموقراطيين فالتوازن أشد دقة وحرجا بين أنصار مبدأ الأمن القومي ومذهب القوة لتأمين انفراد أمريكا بالقرار الدولى وتمثلهم السيدة هيلارى كلينتون والقوى التقدمية التى تريد أمريكا قادرة على قيادة العالم نحو السلام ونزع العسكرة والبولسة (من تسييد البوليس على حساب المجتمع السياسى وهو ما يحدث فى أمريكا بوش) وإيلاء الاهتمام لقضايا الفقر والبيئة والتنمية البشرية فى الداخل. وإن لم تنجح "المؤسسة" فى ترويض باراك أوباما فهو يعبر بحماس وبروح شبابية عن هذه القوى الأخيرة.

والواضح أنه لن يكون هناك تغيير كبير فى المبادىء العامة وأسلوب تنفيذ السياسة الأمريكية فى المنطقة التى يسمونها بالشرق الأوسط إن فاز ماكين أو فازت هيلارى كلينتون. ولكن الفارق يظهر فى الموقف من قضايا محددة وعلى رأسها قضية سحب القوات الأمريكية من العراق. فالسيدة كلينتون التزمت بإنهاء الاحتلال العسكرى للعراق وإعادة القوات الأمريكية لبلادها. وهذه تمثل واحدة من القضايا القليلة التى يتفق عليها المرشحان الديموقراطيان وإن بدرجات مختلفة وبمستويات متباينة جدا من المصداقية. حيث إن كلينتون ليس لها مصداقية تقريبا فى كل شئون السياسة الخارجية ومعرفتها بها محدودة، لدرجة أنها صارت مادة للسخرية أمام البرامج الحوارية وفن الكاريكاتير الصحفى. كما أن انتهازيتها فيما يتعلق بالولاء لإسرائيل أمر مثير للاشمئزاز وإن كانت سمة مشتركة وشبه اجبارية بين الساسة الأمريكيين.

ويعنى ذلك أن التغير المحتمل فى السياسة الأمريكية فى الشرق الأوسط ينصرف أساسا إلى حالة فوز أوباما ليس لأن لديه فلسفة مختلفة تماما للسياسة الخارجية بل لأن أجندته تقوم على الاستجابة السريعة وربما الحاسمة لمطلب الشعب الأمريكى بعادة التركيز على الداخل مقابل التركيز على السياسة الخارجية طوال عهد الجمهوريين وبالذات إدارة بوش. ومع ذلك فعلينا أيضا أن نأخذ فى الاعتبار الفروق المهمة ولكن المحصورة فى قضايا محددة بين ماكين وكلينتون.

دلالات الانتخابات الراهنة:

الانتخابات الأولية ومن ثم الرئاسية الراهنة هى الأكثر إثارة فى التاريخ الأمريكى على الإطلاق وهى شذوذ غير مسبوق عن النمط التقليدى منذ نشأة الولايات المتحدة. وقد لا نستطيع أن نحصر مفارقاتها وغرائبها. لنحاول إضاءة أهم هذه المفارقات على الإطلاق وهى صعود الأقليات بل وتحول نمط السياسات الأمريكية الداخلية بصورة تبدو مبشرة ومتجاوزة لمفهوم الأقليات نفسه.

شكليا تبدو الانتخابات الرئاسية هذا العام وكأنها تدور بين ممثلى أقليات وليس بين شخصيات تنتمى لما يسمى بالتيار الرئيس للحياة الأمريكية. وربما تكون الصياغة الأسلم أن العنصر الرئيسى فى بناء السلطة فى الدولة الأمريكية استبعد عمليا وفشل مبكرا قبل أن تصل الانتخابات الأولية إلى منتصفها. وهذا هو أعجب وأغرب سمات هذه الانتخابات والسر الرئيس وراء كونها الأكثر إثارة منذ تأسيس الدولة الأمريكية.

فالمرشح هيلارى كلينتون سيدة، وبالطبع حققت المرأة الأمريكية انجازات مهمة على الطريق نحو المساواة. ولكن المجتمع الأمريكى لا زال مجتمعا ذكوريا، أى مجتمع يرى ويستطيع فيه الذكور أن يبسطوا هيمنتهم التامة. وليس هناك غموض يذكر فى هذه المسألة. أما السيد باراك أوباما فهو مرشح ينتمى للأقلية السوداء فى الولايات المتحدة بل ولم يولد على الأراضى الأمريكية أى ليس سليلا لأسر قديمة فى هذه العالم الجديد الواسع. وحتى وقت قريب للغاية كان الأفارقة الأمريكيون محرومون

من الحق فى المواطنة. وهم يعدون الأقلية التى عانت أكثر من غيرها ربما على مستوى التاريخ والجغرافيا العالمية معا نظرا لأنها جاءت من تجارة العبيد.

السيد ماكين ينتمى لما يسمى بالتيار الرئيسى للمجتمع الأمريكى من الناحية العرقية والاجتماعية، وهم البيض البروتسانت ولكنه ينتمى أيضا إلى أقلية سياسية وأيديولوجية صغيرة وتكاد تكون معدومة التأثير فى المجتمع السياسى الأمريكى وتسمى بالحرياتيين أو "الليبرتاريانز". هذا التيار جزء قديم من الحزب الجمهورى ولكنه مكروه من تيار آخر دخل الحزب الجمهورى مؤخرا وبعد نفور شديد منذ الحرب الأهلية وهو تيار الأصولية المسيحية. المبدأ المركزى للعقيدة الليبرتاريانية هو رفض تدخل الدولة فى أى جانب من جوانب حياة الفرد. وهى بهذا المعنى تشارك تيارات الأحزاب الأخرى فى طلب دور صغير للدولة ولكنها تختلف معه إما فى شدة التطرف والتشدد فى تطبيق هذا المبدأ أو فى طبيعة الفلسفة. حيث يقف تيار الأصولية المسيحية الذى صار أقوى بكثير فى الحزب على الطرف المقابل من فكر الليبرتاريانيين فيما يتعلق بدور الدولة فى الحياة الشخصية. وبينما يرى الحراتيون أن من حق الفرد أن يختار أى أسلوب حياة يراه مناسبا، يناصب تيار الأصولية المسيحية أشد صور العداء للمثليين والليبراليين السياسيين والتيار النسوى ويرفض الإجهاض..إلخ.

حدود سياسات الأقليات:

لا تتوقف المفارقات عند هذا المستوى العام بالطبع. فالوجه الآخر للمفارقة أنه يستحيل على مرشحى الأقليات هذه أن تفوز دون الحصول على تصويت أبناء التيار الرئيس من الأمريكيين، أى الرجال البيض البروتستانت. ولن يكون هناك أدنى أمل لباراك أوباما إن لم يتمكن من نقل الإسناد الأساسى من السود إلى البيض ومن الشباب إلى الكهول بل والعجائز أيضا. فالأفارقة الأمريكيون يشكلون نسبة تتفاوت بين ١٢و١٥٪ من السكان. وهذه النسبة لا تكفى أبدا للفوز. وعند المرحلة الحاسمة من الانتخابات الرئاسية سيضطر الأمريكيون البيض للاختيار بين أيديولوجياتهم السياسية ومزايا أوباما الأخرى من ناحية والانتماء العرقى من ناحية أخرى. وعليهم أن يروا فى أوباما ممثلا "شرعيا" لهم أيضا. أوباما ذهب فى هذا الاتجاه مشوارا لم يقطعه سياسى إفريقى أمريكى قبله وذلك رغم أنه ليس من "الأبطال" وليس من "الآباء التاريخيين" لحركة الحقوق المدنية بل من جيل آخر تماما لم يعان من العنصرية الفجة. وعلى سبيل المثال، لم يقطع حتى القس جيسى جاكسون، وكان زميلا وتلميذا لمارتن لوثر كينج، خُمس المشوار الذى قطعه باراك أوباما حتى الآن فى الانتخابات الأولية رغم ترشحه فى أكثر من دورة رئاسية.

جانب آخر من المفارقات، هو أن اوباما مرشح مقبول من طيف واسع من الأشخاص والجماعات والأقليات إلا الأقلية الهسبانية أى الآتية من أمريكا اللاتينية الناطقة بالأسبانية. إذ يفضل هؤلاء التصويت لهيلارى كلينتون رغم أنهم ينحدرون من ثقافة أكثر تحيزا للرجال من الثقافة الأمريكية.

وقد يحدث هذا التفضيل إن استمر شرخا مهما فى العلاقات بين الأقليات. بل إنه يلقى بالشك حول معنى سياسات الأقليات وموقف أو دور الأقليات فى الصراع السياسى.

سياسات النساء:

وبالمقارنة، فهيلارى رغم انتماءها لما ينظر إليه كأقلية اجتماعية- أى النساء فى مجتمع لا يزال ذكوريا- هى الوحيدة التى قد لا تحتاج أكثر من ترجمة انتماءها هذا إلى أصوات. فالنساء الأمريكيات مثلهن مثل النساء فى كل بلاد العالم نصف السكان أو أكثر قليلا. وبالفعل اعتمدت السيدة هيلارى على تعبئة تأييد النساء بأكثر من أى شىء آخر. ولكن الطريف أنها لم تكن ناجحة فى انجاز هذه المهمة بالدرجة التى تصورها المراقبون فى البداية. صحيح أن هذا الانتماء أنقذها فى بعض الانتخابات الأولية من هزيمة مؤكدة. كما أن دموع المرأة أثبتت فعالية فى انتخابات أولية أخرى. ولكن هيلارى فشلت هنا تحديدا. فغالبية الشابات من المنتمين للحزب الديموقراطى يفضلن أوباما على هيلارى. ولا شك مطلقا أن الصفات الشخصية أو الملامسة والمقاربة الذاتية أى طبيعة الشخصية وما يمكنها أن تثيره فى الناس من عاطفة بغض النظر عن المصالح والانتماءات مسألة أساسية فى السياسات الانتخابية. والمعتقد أن أوباما يتفوق بصورة ساحقة على هيلارى فى مخاطبة واجتذاب الشباب عموما من النساء والرجال معا وهى مفارقة لطيفة أخرى.

نحن نعلم هذا كله. أما ما نعلمه ولا نعلمه معا فهو أثر "غيرة النساء" الشهيرة على مستقبل هيلارى السياسى. فمن مصلحة النساء انتخاب هيلارى كأول رئيسة للولايات المتحدة منذ نشأتها. وجانب أساسى من السياسات الانتخابية يتعلق بهذا المحور، أى حقوق المرأة وقضاياها. ومع ذلك فعندما يصل الأمر إلى المستوى العملى النهائى تفضل نساء كثيرات التصويت للرجال لا لشىء إلا لشدة مشاعر الغيرة! فبعض النساء يفضلن حرمان غيرهن من ميزة ما على ما يمليه الانتماء للجنس اللطيف من تضامن.

وبالطبع ليست الغيرة هى السبب الرئيس لانصراف نساء كثيرات عن هيلارى. فربما يكون السبب الحقيقى هو انتهازيتها وكثرة تغييرها لآراءها ومواقفها وبالتالى استحالة الاعتماد عليها لتحقيق سياسة أو موقف التزمت به ولو لأيام معدودة.

الجمهورى المثقف:

المفارقة بالنسبة لماكين ستكون هذه المرة - واستثناءً- لصالحه. فالرجل خاض الانتخابات الرئاسية عدة مرات دون أن يغادر المحطة الأولى فى قطار السباق. ولأنه ينتمى لأقلية أيديولوجية ويملك شخصية مسنة بعيدة تماما عن الجاذبية كان المتوقع أنه سيعيد الكرة وسيرسب فى الامتحان من اللحظة الأولى. ولكن ما حدث عكس ذلك تماما؛ فمع أنه رسب بالفعل فى المحطة الأولى إلا أنه سريعا ما

انطلق كحصان جامح فى الانتخابات الأولية للحزب الجمهورى. وقد يعود ذلك إلى بعض المزايا الأخرى للرجل مثل خبرته العريضة بالسياسة الأمريكية، وربما....نقول ربما بقدر معين من الشك - لأنه يعد "عقلا" كبيرا بين الجمهوريين. بل يمكن القول إن ماكين أكثر ميلا للثقافة والمعرفة والتفكير السياسى عما يطيقه الجمهوريون المعروفون بكراهيتهم لها. ولكن هذا العامل ربما يكون قد أثر إيجابا هذه المرة لأن المنافسين من الحزب الديموقراطى يتسمون بنزعة وقدرات ثقافية وعقلية مهمة أو -بالنسبة لهيلارى- خبرات كبيرة. وربما يكون الجمهوريون قرروا التصويت لماكين لكراهيتهم للمرشحين الآخرين من الحزب أو لأن الرجل مثقف أو"عقل"، كما قلنا ينافس الديموقراطيين الذين احتكروا تقريبا سمت الساسة المثقفين. وبذلك يضطر حزب صارت القوة الرئيسية فيه أصولية دينية للتصويت لرجل يعارض تدخل الدين فى السياسة وتدخل السياسة فى الاختيارات الشخصية حتى لو كانت الشذوذ الجنسى والإجهاض!.

والواقع أن هذه المفارقة الأكثر غرابة والتى قد تحدد مصير الانتخابات كلها. فالمعركة الرئيسية للتيار الأصولى فى الحزب الجمهوى خلال السنوات الثلاثين الماضية كانت من أجل فرض "أخلاق مسيحية" بل إنهم حققوا شعبيتهم وشرعيتهم بسبب معارضتهم للإجهاض وكراهيتهم الشديدة للمثليين واهتمامهم بشعار العودة للأسرة. ويمكننا بالطبع أن نشير أيضا إلى رؤيتهم السياسية ورغبتهم العميقة فى نسف الدستور الأمريكى والتمكين لشعار "المسيحية هى الحل". هؤلاء الناس يواجهون الآن اختيارا صعبا ومفارقا بين التصويت لخصم أيديولوجى ولو من داخل نفس الحزب أو خسارة الانتخابات كلية.

وأنا من بين من يرجحون أن الأصوليين سوف يضطرون اضطرارا فى اللحظة الأخيرة للتصويت لرجل معروف بعدائه الشديد للأصولية حتى لا يخسروا البيت الأبيض كلية.

نهاية الأقليات وولوج عصر الأيديولوجيا:

أعظم مفارقات الانتخابات الرئاسية الأمريكية كما أشرنا أنها استبعدت فعليا المنتمين للتيار الرئيس للمجتمع الأمريكى وحصرت المنافسة بين شخصيات تنتمى لأقليات مختلفة: عرقية (باراك أوباما) واجتماعية (هيلارى كلينتون) وسياسية (ماكين).

هذه هى المرة الأولى فى التاريخ الأمريكى التى يستبعد فيها عمليا التيار الرئيسى للمجتمع أو حجر الزاوية فى بناء سلطة الدولة الأمريكية، أى البيض البروتستانت الذين تسود بينهم ثقافة الطبقة الوسطى بمحمولاتها التقليدية.

كيف حدث هذا؟ وما هى دلالاته بالنسبة للسياسات الأمريكية بل والأهم بالنسبة لمستقبل أمريكا الثقافى؟.

يمكن القول إن أمريكا عرفت تقليديا سياسات الأقليات العرقية والدينية وهى لا زالت تشكل

بعدا مهما فى الحياة السياسية والاجتماعية لأمريكا. ولكن ما نراه الآن فى الانتخابات الرئاسية ليس سياسات أقليات بل سياسات التحالفات.

سياسات الأقليات بالمعانى والممارسات التقليدية انصرفت إلى مفاوضات ومبادلات ومقايضات بين سلوك تصويتى معين من جانب أقلية ونصيبها فى العملية السياسية والاقتصادية. وفى المجال السياسى تعنى سياسات الأقليات أن يصوت المواطن تبعا للأقلية التى ينتمى لها: أى تبعا للعنصر أو اللون أو الطائفة الدينية ولأن الأقليات لا تحكم فإنها اعتمدت على مبادلة "الأصوات مقابل حق أو امتياز". والواقع أن سياسات الأقليات لعبت دورا يعده البعض هامشيا ويعده آخرون جوهريا فى دفع تطور الديموقراطية الأمريكية وخاصة من خلال التمكين لانتصار حركة الحقوق المدنية.

ولكن الأقليات ظلت مع ذلك هامشية. والأمر ذاته ينطبق على الأقليات التقليدية والمستحدثة معا. فدور الأفارقة الأمريكيين حتى الآن لم يتعد الحصول على موقع عمدة فى مدينة وفى حالات أقل بكثير منصب محافظ ولاية. ولكن لم يتصور أحد امكانية أن يفوز رجل أسود مثل أوباما بالرئاسة الأمريكية. بل ولم يتصور أحد إمكانية أن يفوز رجل مثل جون كيندى بالرئاسة الأمريكية فى بداية الستينات وهو الذى ينتمى للأقلية الكاثوليكية بل ولهؤلاء المتحدرين من أيرلندا تحديدا وعانوا من تمييز مضاد لهم استمر قرنين على الأقل. وحتى بالنسبة لحركة المرأة فى الولايات المتحدة والتى اكتسبت زخما وقوة كبيرتين بفضل التحول فى طبيعة سوق العمل والانجاز التعليمى لا يزال ينظر للمرأة باعتبارها أقلية اجتماعية.

والواقع أنه منذ الرئيس الأمريكى روزفلت الذى أنقذ بلاده من الركود العظيم فى عقد الثلاثينات وخاض بها الحرب العالمية الثانية اعتمد الحزب الديموقراطى على تحالف عريض بين تيار الوسط ممن يسمون بـ "الواسب" WASP، أى البيض البروتسانت الأعضاء فى الطبقة الوسطى من ناحية وعدد من أبرز الأقليات فى المجتمع الأمريكى، وخاصة الكاثوليك واليهود والسود من ناحية أخرى.

ومع ذلك اشتكت الأقليات الكبيرة وبالذات من السود من أن الحزب الديموقراطى يحصل على أصواتهم دون أن يعطيهم الكثير. فمظاهر التمييز ضدهم لا زالت كثيرة وإن بدت ناعمة. وهم لا زالوا الأكثر فقرا والأقل انجازا فى كل معايير النجاح فى أمريكا. وفيما بعد بدأت الأقليات الأخرى تكرر نفس الشكوى وخاصة المهاجرون من أمريكا اللاتينية.

وفى هذه اللحظة بالذات تأتى الانتخابات الرئاسية الحالية بمفارقتها المركزية: المرشحين الرئاسيين المنتمين للأغلبية من الواسب WASP صاروا خارج السباق الرئاسى.

وكالعادة فإن هذا الانقلاب ملحوظ بدرجة أكبر بكثير فى الحزب الديموقراطى الذى هو مظلة الأقليات القديمة والمستحدثة. ولكن هذه النتيجة لا يمكن فهمها من خلال نموذج الأقليات. فأغلب أصوات اوباما حصل عليها من البيض والشباب. وأغلب أصوات كلينتون حصلت عليها من رجال

وأغلب أصوات ماكين حصل عليها من خصومه الأصوليين الذين يمقتون أيديولوجيته الفردانية العلمانية المتشددة!.

هل تحل الأقليات المستحدثة فى الولايات المتحدة هذه المفارقة؟ ربما تلقى أضواءً إضافية. فالأقليات التقليدية لم تعد متجانسة. ولذلك صوتت نسبة عالية من الأقليات اليهودية واللاتينية بل والعربية لصالح بوش لأسباب متنوعة أثناء انتخابات الولاية الأولى عام ٢٠٠٠!.

وإضافة إلى الفقدان المتزايد للتجانس الداخلى، فإن محاور جديدة لسياسات الأقليات ظهرت فى هذا البلد العجيب. وبالطبع أهم هذه المحاور هى حركة المرأة. وقد يتلوها فى الأهمية حركة المثليين. ويرجع الفضل للأعداد المتعاظمة للمنتمين لهذه الحركة فى نجاح الرئيس كلينتون فى انتخابات الدورة الأولى عام ١٩٩٢. ومن المثير أن كون المرء "أبيض" أو "أسود" لم يعد العامل الحاسم بالضرورة فى جميع الانتخابات بالمقارنة بكونه منتميا للطبقة الوسطى أو الفقيرة أو -وهذا هو الأغرب- إن كان مستقيما أم مثليا!.

تغير بنية الاقتصاد والمجتمع:

والآن تتزايد أعداد الأقليات بهذا المعنى لأن كل جالية أو تجمع صار منقسما على ذاته وبدأت التحالفات الرأسية تصبح حاسمة بالمقارنة بالتحالفات الأفقية. المثليون البيض يلعبون دورا مهما للغاية فى صعود نجم أوباما لأسباب تتعلق بخطابه. وكذلك فإن كراهية الليبراليين الذين يعيشون فى السواحل وخاصة السواحل الشرقية للولايات المتحدة للمحافظين ولإدارة بوش وللأصوليين المسيحيين تفسر إلى حد كبير تبنيهم لباراك أوباما بأكثر كثيرا من كلينتون. ويشعر الليبراليون السياسيون، وهم من الفئات ذات النفوذ الكبير فى الحزب الديموقراطى، أن هيلارى وراء خيانة زوجها لهم: إذ صعد على أكتافهم ثم تركهم ليخاطب ويتحيز للتيار البراجماتى أو الواقعى أو المحافظ داخل الحزب.

وقد لا يستطيع هؤلاء الذين عاشوا فى الولايات المتحدة فى عقد الثمانينات فهم السياسات الانتخابية ولا بنية السياسية أو المجتمع الأمريكى التى اختلفت تماما الآن. ورغم ما قلناه عن تنوع وتعدد المحاور الجديدة لسياسات الأقليات قد لا يمكن أن تفسر ما يحدث فى هذه الانتخابات العجيبة بالإشارة للأقليات.

وربما يقع التفسير السليم فى نموذج مضاد تماما لسياسات الأقليات وهو نموذج الاندماج الثقافى السياسى. ويعنى ذلك أن الأقليات لم تعد مهمة أو على الأقل لم تعد حاسمة بالمقارنة بالانتماءات الطبقية وأن ما كان يشكل أسطورة يشكك بها الكثيرون، أى أن الرأسمالية الأمريكية وثقافتها التبشيرية القائمة على مفهوم الحلم الأمريكى و"بوتقة الصهر" صارت حقيقة. لم يعد مهما أن يكون المرء أبيضا أو أسودا أو رجلا أو امرأة فى الانتخابات العامة والرئاسية تحديدا. المهم هو أن يكون لديه أفكار وبرامج عمل أو رؤى تلبى ميول ومصالح قطاعات واسعة من كل المجتمع بمستوياته الطبقية

وأيديولوجياته وأساليبه المفضلة فى الحياة. وقد حدث هذا التطور المذهل بالفعل بفضل التحول المدهش وواسع النطاق فى الاقتصاد بل وفى بنية المجتمع الأمريكى.

الذى اختلف فى أمريكا خلال العقدين الماضيين ليست السياسة بل المجتمع كله. لم يعد مجتمعا صناعيا بل مجتمع خدمات ومعلوماتية، ولم يعد بالضرورة مجتمع ثقافات موروثة ومتنوعة بل مجتمعا ينشد تلمس مستقبل مختلف ويرفض الهيمنة. بل ولم يعد مجتمعا "جماهيريا" بل مظلة لمجتمعات غاية فى التنوع صارت تختار بعضها البعض ولا تكتفى بما ترثه من انتماءات.

قانون الصدفة؟:

وقد لا تكون النماذج السياسية والتحولات الثقافية هى التى تفسر النمط العجيب للانتخابات الرئاسية هذه المرة، وإنما السياسات الطبقية. وبينما سقطت فكرة الطبقات من ذاكرة السياسة فى العقدين الأخيرين، إلا أنها تعود الآن للظهور بقوة بسبب التحولات فى بنية الاقتصاد.

الانتخابات الرئاسية الأمريكية الحالية قد تكون الأغرب والأكثر شذوذا عن النمط التاريخى لأسباب لا صلة لها بكل ما قلته بل لتلاقى طائفة عجيبة من الصدف!.

هل تستحق الانتخابات الأمريكية الاهتمام؟:

كثيرون فى العالم العربى والإسلامي سيعارضون الاهتمام بالانتخابات الأمريكية. إذ صار مجرد إيلاء الاهتمام لهذه الانتخابات أو بما يقوله الأمريكيون ويعملوه سلوكا معيبا بمعنى معين ربما لدلالته على استمرار عقيدة التبعية لأمريكا والتى جسدها أو بررها الرئيس الراحل أنور السادات عندما ادعى أن ٩٩٪ من أوراق اللعبة بيد أمريكا. وبوجه عام، يبدو أن العقل العربى انقسم بين دعاة دبلوماسية ورأى عام عالمى وسياسات التفاوض من ناحية ودعاة الحل العسكرى والمقاومة والتعبئة الداخلية ورفض المفاوضات والبدء بالحد الأقصى من ناحية أخرى.

وواقع الأمر أن السيطرة الطويلة لمدرسة التفاوض والدبلوماسية وفشل النظم العربية المخجل فى تحقيق أى انجاز فى أية قضية عربية، وعلى رأسها قضية فلسطين وانطلاق التطرف الأمريكى والإسرائيلى من عقاله، دفع لتحقير شديد حتى لأبجديات السياسة وفنون الدبلوماسية فضلا بالطبع عن معنى القانون. ومن المحتمل أن العقل العربى غير الرسمى سواء كان منظما فى تيارات أو غير منظم صار يمقت السياسة والتفاوض ويحتقر القانون طالما تعنى له استمرار الظلم والكيل بمكيالين.

ومع تقديرنا لأسباب هذا المزاج أو الموقف، إلا أنه يخطئ فى نواح جوهرية للغاية. فليس ثمة خصومة بين المقاومة والنضال من أجل الحقوق العربية من ناحية والحساب الدقيق للتوازنات والمواقف الدولية من ناحية أخرى. ويجب على المقاومين أكثر من دعاة التبعية حساب وتقدير الانتقالات فى السياسة الدولية بل ودفعها أو صنعها عند اللزوم. ومن هذا المنظور فالاستعداد بأجندة ومواقف سياسة

طازجة ومصاغة جيداً للاشتباك مع الواقع الأمريكي الذى قد تسفر عنه الانتخابات هو أفضل خدمة ممكنة لمدرسة المقاومة بل ولمدرسة الاعتماد على الذات. فانتظار أن تنتج أمريكا مواقف وسياسات ما بعد الانتخابات الرئاسية يعنى أننا نستمر مفعولا به نتلقى ولا نصدر خطابا ونرد ولا نبادر ونصد ولا نمنع الأسوأ.

وبوجه عام، فما كشفت عنه "موجة أوباما" وعلامات عديدة قبلها وبعدها أن الولايات المتحدة لم تعد تستطيع الانفراد بالشئون العالمية وأن مكانتها النسبية فى النظام الدولى تتراجع وأن هناك قوى داخلية كبيرة تريد تحولات عميقة فى المواقف الأمريكية من الصراعات والقضايا الدولية تجعلها أكثر إنسانية وتعاونا مع العالم وأقل عدوانية.

مبادرة من أجل العراق:

وما ندعو له فى الحقيقة هو الاستعداد لصياغة استراتيجية تتفاعل مع القوى التقدمية فى أمريكا والتى تساند أوباما حتى لو لم يكن أفضل تعبير عنها بل وحتى لو تصرف بصورة انتهازية نسبية مثلما فعل الرئيس السابق بيل كلينتون من قبله حيث صعد على أكتاف القوى التقدمية ثم صرفها وخانها وتحيز للقوى الوسطية والبراجماتية فلم يصنع فرقا باقيا فى السياسة الأمريكية ومهد لهزيمة الديموقراطيين أمام بوش الابن واليمين الأصولى المتطرف.

ولكن ما هى الأجندة الجديدة التى نقترحها وهل الوقت الآن مناسب لطرحها وعلى من نطرحها سواء فى أمريكا أو على المستوى الدولى؟.

بكل أسف ليست هناك نماذج ملهمة فى الساسة العربية. ولكنى أتصور أننا يمكن أن نفيد كثيرا من مبادرة عدد من الساسة العراقيين الذين يطلقون الآن مبادرة جديدة لإنهاء المحنة الممتدة للعراق. وهم يطالبون بوضع العراق تحت إشراف مؤقت للأمم المتحدة وانهاء الاحتلال الأمريكى وتولى حكومة جديدة ومحايدة لمسئولية إدارة الانتقال فى العراق وإجراء انتخابات برلمانية جديدة.

الجديد فى مبادرة أو "أجندة" واضحة من هذا النوع هو تأكيد الدفع نحو النضال السلمى بعد أن نزف العراق كل دمه تقريبا سواء نتيجة للغزو الأمريكى أو باسم المقاومة ذات الفلسفة القاعدية. ويعنى ذلك المزاوجة الدقيقة بين المقاومة والحق فى السلم الأهلى بالنسبة لبلد عانى كل هذا القدر من العنف. ومن زاوية المقاومة يتحدث هؤلاء الساسة العراقيون عن "حل سعيد" يقوم على إنهاء الاحتلال وتأسيس دولة ديموقراطية فى نفس الوقت. وكانت السياسة العراقية قد شهدت نفس الاستقطاب والانقسام الأحادى بين دعاة ديموقراطية يؤيدون الاحتلال أو يريدون إبقاءه أطول فترة ممكنة ودعاة مقاومة ولكنهم أبعد ما يكونوا عن قبول الفكرة الديموقراطية. ويطرح هؤلاء الساسة العراقيون صيغة تشبه التفويض الذى حصل عليه الوفد المصرى بقيادة سعد زغلول عام ١٩١٩ وهو ما يدفعهم للدعوة لجمع التوقيعات الشعبية. ولو كان لدى هؤلاء قدرة تنظيمية لأمكنهم أن يعبئوا الأغلبية الشعبية كما

تظهر فى جميع الاستطلاعات (الأمريكية) والتى تريد إنهاءً سريعا للاحتلال الأمريكى وبناء دولة ديموقرطية فى نفس الوقت.

صياغة مثل هذه الأجندة وطرحها مبكرا على المجتمع الأمريكى يمكن أن يكون بدوره حلا سعيدا لأمريكا ذاتها لأن القوى التقدمية الأمريكية تريده ويمكن أن تلزم به أوباما بل وكلينتون، إن وصل أحدهما للمقعد البيضاوي فى البيت الأبيض.

أما بالنسبة للقضية الفلسطينية فالأمر يبدو أكثر تعقيدا؛ فالحركة الصهيونية تهيمن تقريبا على مؤسسات الحكم وبالذات الكونجرس والرئاسة. ويبدو أن المرشحين الثلاثة للبيت الأبيض يتفقون على استمرار التحالف مع إسرائيل. ومع ذلك، فإن ثمة جديدا فى الأمر. فلأول مرة يترشح رجال ونساء لهذا المنصب لم يعيشوا حياتهم السياسية فى ظل الحركة الصهيونية. ورغم حرصهم على الظهور بمظهر الولاء للصهيونية وإسرائيل فهم فى الحقيقة قادرون على كسب شيء من الاستقلال الذاتى والقدرة على المناورة. هل هذا ما نريده؟ ليس هذا هو ما يجب أن نراهن عليه كعرب وكمواطنين. فيجب أن نراهن فقط على قدرتنا الذاتية. وبافتراض أننا تمكننا من تعبئة هذه القدرات وامتلكنا الرغبة فى حسن إدارة الصراع مع الحركة الصهيونية وآلة الحرب الإسرائيلية فإن أي تغيير ولو جزئى فى البيئة الخارجية يمكن أن يعدل كثيرا موازين القوى وبالطبع موازين التعاطف العالمى.

ويهمنا فى هذا الإطار أن نفهم الانتخابات الأمريكية ليس باعتبارها "منافسة" بين مرشحين بل هى فى الحقيقة أعلى مستويات الصراع حول مستقبل أمريكا وربما مستقبل العالم أيضا. وتبدو هذه الانتخابات بالذات مؤثرة على نحو غير مسبوق فى اختيارات أمريكا الداخلية والخارجية معا.

د. محمد السيد سعيد